المطلب السادس
بيان الحكمة من استخدام حرف النداء (يا) دون غيره

أصل النِّداء بـ (يا) أن تكون للبعيد حقيقة أو حكمًا[1]. وقد ينادى بها القريب[2] لنكت منها:

إظهار الحرص في وقوعه على إقبال المدعو نحو: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ﴾ [القصص:٣١]، ومنها: كون الخطاب المتلو معتنى به نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١].

---

(١) وعند المرادي والمالقي: مسافة أو حكمًا..، والمراد من قولهم: (حكمًا)، أي: كالنَّائم والغافل والسَّاهي. انظر: الجنى الدَّاني (ص:٣٥٤)، رصف المباني (ص:٤٥١).

(٢) انظر: الكليَّات (ص:٩٧٩)، الإتقان (٢/٢٢٢- ٢٢٣)، البرهان (٢/٣٢٤)، (٤/٤٤٥)، القاموس المحيط، الياء، (ص:١٧٤٨)، المعجم الوسيط كذلك، (٢/١٠٦٢)، تاج العروس، الياء، (٤٠/٥٥٥)، مختار الصِّحاح، الياء (ص:٣٠٩)، همع الهوامع (٢/٣٢-٣٤)، تفسير أبي السعود (١/٥٨)، روح المعاني (١/١٨١)، البحر المحيط (١/١٥١)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٢/٢)، الإتقان (٢/٢٢٣)، البرهان (٤/٤٤٥)، بصائر ذوي التَّمييز (٥/٤٢٢)، الجنى الدَّاني (ص:٣٥٤)، رصف المباني (ص:٤٥١)، مصابيح المعاني (ص:٤٢٤- ٤٢٥). وفي (مغني اللَّبيب): "حرف موضوع لنداء البعيد حقيقةً أو حكمًا، وقد ينادى بها القريب توكيدًا. وقيل: هي مشتركة بين القريب والبعيد. وقيل: بينهما وبين المتوسِّط. وهي أكثر أحرف النِّداء استعمالًا؛ ولهذا لا يقدَّر عند الحذف سواها". مغني اللَّبيب (ص:٤٨٨). وفي (حاشية الأمير على المغني): قوله: [أي: ابن هشام في (المغني)] "توكيدًا.. إشارة إلى أنَّ الكلام الذي يلقى أو نفس الدُّعاء معتنى به حتى نُزِّلَ القريبُ وإن كان متنبِّهًا لذلك منزلة الغافل.." الحاشية (٢/٤١).

ومنها: قصد تعظيم شأن المدعو إمَّا إجلالًا كما في قول الدَّاعي: ﴿يَا رَبِّ﴾ [الفرقان:٣٠]، وهو أقرب إليه من حبل الوريد؛ استقصارًا لنفسه؛ واستبعادًا لها من محافل الزُّلفى، ومنازل المقربين، وإمَّا تنبيهًا على غفلته وسوء فهمه. وقد يقصد به التَّنبيه على أن ما يعقبه أمر خطير يعتنى بشأنه نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦]، ومنها: قصد انحطاطه كقول فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١][(١)].

قال الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كَثُرَ في القرآن الكريم النِّداءُ بـ: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ دون غيره؛ لأنَّ فيه أوجهًا من التَّأكيد، وأسبابًا من المبالغة، منها: ما في (يا) من التَّأكيد والتَّنبيه، وما في (ها) من التَّنبيه، وما في التَّدرج من الإبهام في (أي) إلى التَّوضيح، والمقام يناسب المبالغة والتَّأكيد؛ لأنَّ كلَّ ما نادى له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده ومن اقتصاص أخبار الأمم الماضية، وغير ذلك ومما أنطق الله عَزَّوَجَلَّ به كتابه، أمورٍ عظام، وخطوبٍ جسام، ومعانٍ واجب عليهم أن يتيقَّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم غافلون فاقتضى الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ"[(٢)].

وقال: "و(يا) حرف وضع في أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرَّجل بمن يناديه. وأمَّا نداء القريب فله (أي) و(الهمزة)، ثمَّ استعمل في مناداة من سَهَا وغَفَل وإن قرب تنزيلًا له منزلة من بَعُد، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتَّأكيد المؤذن بأنَّ الخطاب الذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا. فإن قلتَ: فما بال الدَّاعي يقول في جؤاره: (يا رب)، و(يا ألله)، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وأسمع به وأبصر؛ قلتُ: هو استقصار منه لنفسه؛ واستبعاد لها من مظانِّ الزُّلفى، وما يقرِّبه إلى رضوان الله عَزَّوَجَلَّ، ومنازل المقرَّبين؛ هضمًا لنفسه؛ وإقرارًا عليها بالتَّفريط في جنب الله عَزَّوَجَلَّ، مع فرط التَّهالك على استجابة دعوته، والإذن لندائه وابتهاله. و(أي) وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللَّام، كما

---

(١) انظر: المصادر السَّابقة.

(٢) الكشاف (١/٢٢٥–٢٢٦)، تفسير أبي السعود (١/٥٨)، وانظر: الإتقان (٢/٢٢٢–٢٢٣). وانظر: المفصل في صناعة الإعراب (١/٤١٣).

أنَّ (ذو) و(الذي) وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس، ووصف المعارف بالجمل. وهو اسمٌ مبهمٌ مفتقرٌ إلى ما يوضِّحه ويزيل إبهامه، فلا بدَّ أن يردفه اسمُ جنس أو ما يجري مجراه يتَّصف به حتى يصحَّ المقصود بالنِّداء، فالذي يعمل فيه حرف النِّداء هو (أي)، والاسم التَّابع له صفته، كقولك: (يا زيد الظَّريف)، إلا أنَّ (أيًّا) لا يستقلُّ بنفسه استقلالَ (زيد)، فلم ينفك من الصِّفة. وفي هذا التدرُّج من الإبهام إلى التَّوضيح ضرب من التَّأكيد والتَّشديد. وكلمة التَّنبيه المقحمة بين الصِّفة وموصوفها لفائدتين:

١ – معاضدة حرف النِّداء ومكاتفته بتأكيد معناه.

٢ – ووقوعها عوضا ممَّا يستحقه (أيّ) من الإضافة"[(١)].

ويتبيَّن مما سبق الحكمة من استخدام حرف النِّداء (يا)، وما للنِّداء بـ (يا) دون غيرها من أدوات النِّداء الأخرى من المزايا والخصائص التي إن دلَّت فإنما تدلُّ على الدِّقة والإحكام في تناسق ألفاظ القرآن الكريم، ودلالتها على المعاني الجليلة.

(١) الكشاف (١/٢٢٤–٢٢٦)، وانظر: تفسير أبي السعود (١/٥٨)، تفسير الرازي (٢/٣٢١)، تفسير النيسابوري (١/١٨٠)، الإتقان (٢/٢٢٢–٢٢٣)، تفسير سورة النِّساء، إبراهيم خليفة (ص:١٠٦–١٠٧).